المجمعيّ الدبلوماسي إبراهيم القطّان

الدكتور عبدالهادي التازي

كان علينا أن نحضر المؤتمر الثقافي العربي الرابع في الإقليم السُّوري من الجمهورية العربية المتحدة في أواخر غشت ١٩٥٩، وبوصولنا إلى دمشق عرفنا أن اللقاء تأجَّل إلى اليوم الخامس من شتنبر، وهنا وردت علينا فكرة القيام برحلة للمملكة الأردنية الهاشمية لزيارة معالمها وخاصة بيت المقدس أنقذه الله من الرِّجس...

وبما أننا ننتسب إلى أسرة التعليم فقد فكّرنا في أن نؤدّي الزّيارة بادئ الأمر لوزارة التربية والتعليم في عمان...

أحاول أن أعرف اليوم البناية التي دخلناها والتي كانت تحتضن قادة التعليم ورؤساء الأقسام في ذلك العهد، لكنّي لم أنجح في الوقوف على آثار ذلك المنطلق... إن عمان اليوم غدت عملاقاً عظيماً تتلاشى معه وأمامه سائر صور الماضي!

كان الأستاذ إبراهيم القطّان أوّل من استقبلنا قبل أن ندخل لمكتب سماحة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي... ومنذ اللحظات الأولى شعرنا أننا أمام إخوةٍ لنا كأننا كنّا على معرفةٍ سابقة قديمة بهم...

ما أزال أذكر عرض الأستاذ القطّان عن حالة التعليم بالمملكة آنذاك وحماسه في إعطائنا صورةً كاملةً عن الحالة التربوية في البلاد.

وقبل أن نودّع الوزارة إلى فندق (فيلّاديلفيا) قدَّم إلينا أعضاء الوفد الأردني للمؤتمر الذي سينعقد في دمشق وكان يتألف من الأساتذة: الأستاذ عبدالهادي التازي رئيس الوفد المغربي للمؤتمر الثقافي العربي الرابع المنعقد بدمشق، ومحمد

نوري شفيق وفائز الغول والأستاذ طلعت السيفي. فعل ذلك ليكسبنا أصدقاء في المؤتمر قبل الموعد.. أطرف من هذا أنه ذكر لنا اسماً أردنياً رابعاً قال: إنه سيلتحق بكم في القاهرة ضمن وفد الأمانة العامّة لجامعة الدّول العربية، ولم يكن هذا الأردّني غير الدكتور ناصر الدين الأسد الذي ما يزال أمام عيني إلى الآن وهو في عنفوان الشباب تعلو رأسه وفرة غُدَافية اللّون!

لقد كان أجملَ معروف قدمه إلينا الأستاذ القطّان تسهيل زيارتنا إلى المسجد الأقصى... الأمر الذي تمَّ في أحسن الظروف حيث كان هناك في استقبالنا الشيخ مصطفى الأنصاري رئيس سدنة المسجد الأقصى آنذاك ولقد كان من أبرز ما سجلته ذلك اليوم الأربعاء ٢٨ صفر الخير ١٣٧١هـ، شتنبر عام ١٩٥٩م ما يتصل بالتحفة المغربية الثمينة التي توجد في خزانة المتحف الإسلامي بالقدس الشريف، ويتعلق الأمر بالمصحف الذي وقفت عليه هناك مما خطه بيده أحد الملوك المغاربة في العصر الوسيط...

إنه من الواجب عليّ أن أعترف هنا بأنني منذ ذلك التاريخ وأنا أعيش مع الشيخ القطان كلّما فتحت صفحة للبحث حول تاريخ ذلك المصحف وتحقيق القول فيه ومقارنته مع المصاحف المماثلة المرسلة لجهاتٍ أخرى من العالم الإسلامي...

سيظل ما كتبتُه عن هذا الأثر الشريف طوقاً في عنقي أدين به للشيخ القطان أسبغ الله عليه من رحماته...

نحن نعلم أنّ المغاربة ظلّوا عبر تاريخهم الطويل على صلة بهذه البقاع: علماؤهم ومرابطوهم ومجاهدوهم ظلّوا يعنون إلى أداء واجبهم هناك، وقد كان في الهدايا التي كانت ترسل من أقصى بلاد المغرب مصاحف نفيسة خطت بعناية ودقّة...

وحتى يعبّر ملوك المغرب أنفسهم عن تعلّقهم بتلك الرّحاب قاموا بنسخ مصاحف كبرى بخط أيديهم ليجعلوها في خزائن تلك العتبات المقدسة تذكيراً بأهمية التُّرْبة وتعبيراً عن التشبث بها.

وهكذا فبعد المصاحف الجليلة التي أهديت إلى الحرمين الشريفين[1] قام السلطان أبو الحسن أيضاً عام ٧٤٥هـ (١٣٤٥-١٣٤٦م) بانتساخ مصحف برسم أن يكون خاصاً بالمسجد الأقصى، كتبه بيده وجمع الوراقين لتنميقه وتذهيبه، كما أحضر القراء لضبطه وتهذيبه، ووضع له (ربْعَة)[2] أي ظرفاً ممنوعاً من الإبنُوس (L,eb,ene) والعاج والصندل وغشاه بصفائح الذهب وغلفه من فوق برقاع من

---

(١) لقد قام سلطان بني مرين أبو يعقوب (٦٥٥-٧٠٦هـ) بإرسال مصحف إلى مكة المكرمة كان بخط ابن حسني ثم قام السلطان أبو الحسن بكتابة مصحف، بذات يده وحبسه على المسجد النّبوي بالمدينة المنورة، وكان ابتداءً برسم أن يكون بشالّة بضريح جدّه يعقوب بن عبدالحق لكنه فضل أن يرسله مع ركب الأميرة مريم سنة ٧٣٨ هجرية، وكان من ضمن رجال الوفد أبو الفضل محمد بن عبدالله بن أبي مدين والقاضي أبو إسحاق إبراهيم التازي، وقد كان المصحف الثاني الذي خطه السلطان أبو الحسن عام ٧٤٢هـ هو الذي بعث به إلى الحَرم المكي – علاوةً على المصحف السابق الذي كان بخط ابن حسين. وقد حبس عليه من الأموال سائر دكاكين (فندق البركة) بحيّ القطّانين من (فاس)، وبعثه مع أبي الفضل محمد بن أبي مدين السالف الذّكر. ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن، تحقيق د. ماريا خيسوس بغيرا، الجزائر ١٤٠١هـ- ١٩٨١م، ٤٧٥-٤٧٦. الاستقصاء. ١٤٠-١٤٧.

(٢) الرُّبْعَة: الظّرف من خشب ونحوه ويقول المغاربة في تصغيرها "الرُّبَيْعَة" وقد عرف من الأمثال الشّعبية في طائفة من المدن المغربية حكاية عن اليهود: أنّهم "يهزُّون الرُّبْعة" أي أنهم "يحتالون" والأصل فيه أن بعض الإسكافيين منهم كانوا يحملون ربْعتهم ويقصدون المدينة لممارسة عملهم... غير أن منهم من كان يستعمل "الربعة" تحيُّلاً لأغراض أخرى... فأصبحت "الربعة" الحيلة وكان منها المثل الشعبي الآخر: "كلّ يوم بِرّبْعته" أي كلّ يوم أو كلّ ظرف له حيلته.

الحرير والديباج... وبعثه مع أبي المجد: نجل أبي الفضل محمد بن أبي مدين السابق قبل أن يبتدئ بنسخ مصحفٍ خاص لمقام إبراهيم الخليل أكمله بعده ابنه السلطان أبو عنان[1].

وقد وهم ابن خلدون عندما ذكر أن أبا الحسن أدركته وفاته قبل الفراغ من نسخ المصحف المقدسي، فقد بعث بهذا المصحف الجميل بواسطة أحد سفرائه اللامعين هو أبو المجد المذكور.. لكن النسخة التي لم يُتمها هي النسخة التي كانت برسم المقام الخليلي[2].

وقد ذكر المقري، صاحب نفح الطيب، أنه رأى المصحف، الذي ببيت المقدس ورأى ربْعَته وهي في غاية الصنعة[3].

وقد استمر هذا المصحف ببيت المقدس إلى السنوات الأخيرة حيث وقفت عليه يوم الأربعاء ٢٨ صفر الخير ١٣٧١ الموافق ل ٢ شتنبر عام ١٩٥٩، على ما أسلفت.

لقد كان **المصحف المريني المقدسي** ويدعى بالرّبعة المغربية – يتكون من ثلاثين جزءاً وهو على ما يؤكد الأستاذ السيد مروان أبو خلف والأستاذ نظمي أمين

---

(١) يراجع ما ورد في الرسالة التي بعث بها أبو الحسن بتاريخ ٢٦ صفر ٧٤٥ يتحدث فيها عن "المصحفين الأكرمين للحرمين الشّريفين كما يراجع الخطاب الذي أجاب به إسماعيل بن قلاوون عن "المصحفين المخصصين للحرمين" ويلاحظ السكوت عن المصحف المخصص للمدينة حيث إن هذا قد عهد بالعناية به لوالد ابن مرزوق... الناصري: الاستقصا ٣/١٤٠-١٤٧ إلخ...

(٢) ابن خلدون: كتاب العبر، المجلد السابع، دار الكتاب اللبناني ص٥٥٤، ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن ص٤٧٧.

(٣) المقري: نفح الطيب نشر د. إحسان عباس: مجلد ٤، ص٤٠٠.

الجعبة، أمين المتحف الإسلامي[1] **من أروع المصاحف التي يحتضنها المسجد الأقصى، حيث إن مُعْظَم أجزائه مكتوبة على رق الغزال** وكل من هذا المُعْظَم مجلد بجلد سميك أيضاً من رق الغزال وعلى كلا الوجهين هناك زخارف هندسية وكتابية، وكلّ وجه محاط بشريط زخرفي عبارة عن خيوط ذهبية وفضية متداخلة محددة من الخارج والداخل بزوجين من الخطوط الفضية، أما الوسط ففي داخله دائرتان فضيتان متحدتا المركز، وإن كلاً من الشريط والدوائر يحتوي على زخارف كتابية وقد كان مما كتب في الشريط الزخرفي ما يلي: "كتب هذه الربْعَة وبخطه ووقفها على التلاوة فيها ببيته المقدس شرفه الله، عبدالله عليّ أمير المسلمين بن أمير المسلمين أبي سعيد بن أمير المسلمين أبي يوسف بن عبدالحق، وكملت في أواخر ذي الحجة خمسة وأربعين وسبعمائة فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم". وقد نصت الكتابة التي على الصفحتين الأخيرتين على ما يلي: "كمل الجزء الأول من هذا المصحف الكريم المجزأ ثلاثين[2] جزءاً وكتبت جميعها بخط عبدالله عليّ أمير المسلمين بن أمير المسلمين أبي سعيد عثمان بن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبدالحق ملك المغرب نفعه الله ووقفها على التلاوة فيها بالمسجد الأقصى شرفه الله كما يجب فيه من ثواب الله نفعه الله وغفر له ولوالديه ولمن دعا لهما بالرحمة آمين، وذلك في

---

(١) قدّم أبو خلف بحثاً مهماً بعنوان: "المتحف الإسلامي بالحرم الشريف وتاريخه ومحتوياته "إلى المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين) الذي انعقد بالجامعة الأردنية – جمادى الآخرة ١٤٠٠هـ = أبريل ١٩٨٠م، كما أن الأستاذ نظمي، أمين المتحف نشر بحثاً بعنوان "فن كتابة المصحف الشريف وتجميله في مجلة هدى الإسلام (القدس) السنة الثانية، العدد السادس جمادى الآخرة ١٤٠٤هـ آذار ١٩٨٤ ص٣٠-٤٥.

(٢) جرت عادة المغاربة على توزيع تلاوة المصحف حزْبين، كلّ يوم، أحدهما يتلى صباحاً والثاني مساءً وهناك أوقاف إلى اليوم على الذين يتلون القرآن على هذا الطريق إثر صلاة الصبح وبعد صلاة المغرب.

أواخر ذي الحجة سنة خمس وأربعين وسبعمائة بحضرة فاس حرسها الله، والحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً".

لقد شَعَرْتُ منذ ذلك التاريخ بآصرة رحمٍ ربطتْني بأخي إبراهيم، وهكذا فلم تكد تمضي سنة على لقاء عمان حتى تم لنا لِقاء ثانٍ ولكن على أرض مدينة فاس العاصمة الأولى للإسلام بالمغرب الأقصى.

هناك وفي شهر أكتوبر من عام ١٩٦٠ كان لنا موعد مع الاحتفال بذكرى مرور أحد عشر قرناً على ميلاد جامع القرويين الذي يعتبر من أقدم الجامعات الإسلامية في العالم...

لقد كان على المغاربة وعلى رأسهم المغفور له الملك محمد الخامس – أن يؤدُّوا بعض ما عليهم من واجبات نحو هذا المعهد العظيم الذي نقدِّر جيداً دوره في الحفاظ على الحرف العربي بالغرب الإسلامي، وكان من الطبيعي أن تشاركنا فرحتنا بهذا العيد سائر الدول التي كان لها ملة معنا من قريب أو بعيد..

وقد كان في صدر هذه الدولة المملكة الأردنية الهاشمية التي أوفدت عنها إلينا الشيخ إبراهيم القطّان الذي أبى إلّا أن تكون تحيّته لجامعة فاس قصيدة شعرية رفيعة بعنوان: "مواكب المجد" قوطع إنشادها بعاصفة من التصفيقات:

عيد الفخار وعيد العلم والأدب ... حفّته إليك وفود الغرب والعرب
جاءوا لجامعة كالنجم عالية ... شابت نواصي الليل وهي لم تشب
أفنت قروناً ومرت في حوادثها ... تزري بهن ولم تسأل عن الثُّوَب
مواكب المجد في أرجائها احتشدت ... في مسمع الدهر لم تخفت ولم تغب
يا أيها الحرم الزاهي نجمه ... تلألأ المجد في أرجائك الرحب
وقفت حرباً على الباغي بصادقة ... من العزيمة والتصميم والدأب
وحلت بين الذي يبغيه من ضرر ... للدّين واللغة الفصحى ومن كرب

من مواطن الوحي في الأقصى وصخرته ... أرض النبـــوءة والإســـراء والحســـب
مهـــد الخليـــل وعيســـى فـــي قداســـته ... جئنـــا بأشـــواقنا للمغـــرب العربـــي
نهـــدي التحيـــات والأشـــواق لاهبـــة ... إلـــى بنـــى عمنـــا والأخـــوة الغلـــب
وقـــد تركنـــا نفوســـاً كلهـــا أمـــل ... يهزهـا الشـوق لـم تيـأس ولـم تخـب
نحمـــي الحـــدود بعـــزم صـــادق ويـــد ... علـــى الجهـــاد لصـــدّ الغاشـــم الكَلِـــب
يـــا أهـــل فـــاسٍ لقـــد فُـــزتم بمكرمـــة ... تاهت على الكون في الدنيا من العجب
فـــزتم بجامعـــةٍ كالشـــمس مشـــرقة ... قـد خلـدتكم مـدى الأزمـان والحقـب
ســـقياً لشـــعبكم، ســـقيا لجـــامعتكم ... ســقيا لمـوطنكم مـن وطـن خصـب

لقد كان عطاء الشيخ إبراهيم في هذا اللّقاء عطاءً جزلاً... فعلاوةً على قصيدته التي تركت صداها قدم إلينا كلمة تاريخية أسهم بها سماحة الشيخ محمد الأمين الشّنقيطي وزير التربية والتعليم بالأردن وكانت تحمل عنوان: "جامعة القرويين بين القديم والحديث"...

وإن الذين يعرفون – كما أسلفته – عن دور هذا الجامع في سائر الجهات التي تقع جنوب المغرب ليدركوا معنى ودلالة حديث الشيخ الشّنقيطي بالذات عن إشعاع جامعة فاس سيما والشيخ الشنقيطي يمثل أسمى تمثيل فكرة أنْ لا حدود بين أفراد المجموعة الإسلامية!!

ولقد أتبَعنا الشيخ القطان الكَرامة حيث مال، كما يقول الشعراء.. لذلك وجدناه يقوم بتغطية هذا المهرجان الذي حضره مندوبون عن القارات الخمس، في مجلة هدى الإسلام الأردنية حيث قرأنا وصفاً حيّاً آنذاك لسائر التظاهرات التي تمت بهذه المناسبة...

وقد افترقنا وكأننا على موعد للحضور في القاهرة في يناير ١٩٦١ لحضور اجتماعات الدّورة الرابعة عشرة للجنة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية، كانت هناك فرصة أخرى لصلة الرحم بالشيخ إبراهيم القطان الذي اجتمعنا به هذه المرة صحبة طائفة من رجال الفكر وأقطاب العلم.

لقد ارتفعت الكلفة بيني وبين الشيخ وكان بالإمكان أن نظلّ هكذا على اتّصال بيد أنه في الوقت الذي كانت الأقدار تدخر له مقاماً طويلاً في المغرب بمناسبة تعيينه سفيراً لبلاده منذ يوم ١٣-٥-١٩٦٦ إلى يوم ١١-٤-١٩٧٣ في هذا الوقت بالذات حكمت الأقدار بأن أرحل عن المغرب إلى المشرق لأمثّل بلادي أيضاً في أرض الرافدين...

ومع ذلك فقد استمرت المراسلات بيننا منتظمة تناولتْ مختلف الموضوعات وكان فيها ما يحتوي على المفاكهة في القول والمباسطة في الخطاب وهذا جانب طريف في حياة الفقيد العزيز ينم عن أريحيةٍ وكرمِ نفس... وقد كان من أبرز تلك المراسلات ما يتصل بالتعليق والتعقيب على ما نتهاداه من بحوث ومؤلفات.. وما أزال أذكر إيثاره لي بإهدائي النسخة الأولى من كتابه بعنوان: "عثرات المنجد في الآداب والعلوم والأعلام"

لقد كانت النظرة الأولى على هذا الكتاب مدعاةً للإشادة بهذا العمل الفذ الذي يدلّ على اطلاع واسع وعلى علم جم إلى جانب الدأب والنَّفَس الطويل بالإضافة إلى ما يعبر عنه من غيرة زائدة على العربية وحرص كبير على سلامة المعلومات المقدمة لأجيالنا الصّاعدة...

لقد بلغ عدد المفردات التي حققها أو ضبطها أو أوضحها **ألفين وأربعمائة وأربعاً وثلاثين مادّة**، كما بلغت صفحات الكتابة ستمائة وأربعاً وستين صفحة! إنه منجد آخر!!

وقد حبب إليّ وأنا بالمغرب أن أقوم بجردٍ للائحة المفردات التي تمسّ بلادي المغرب ممَّا كان حظه في المنجد على غير ما ترتضيه الحقيقة المنشودة... مثل ما ورد عن مدينة اسنى وأنها بكسر الهمزة، وما ورد عن الأشراف العلويين من أنهم حُسَيْنيّون مع أنهم حسنيون..! وما ورد عن الجزولي وحزب البحر ومولاي بوشتى وأنّه شفيع الموسيقيين.!

لم يكن ذلك أول ولا آخر بحثٍ عرفته لقاضي القضاة الشيخ إبراهيم القطان الذي كان حركة لا تنضب، فقد أتحفني منذ أربع سنوات وأنا هنا في عمان بعمله الجليل الذي قام به تحيةً لمطلع القرن الخامس عشر الهجري، ويتعلق الأمر بكتابه: "تيسير التفسير" الذي جعل له (مقدمة) ينبغي أن يجعلها المهتمون بدراسة القرآن الكريم ورقة عمل يعتمدونها قبل المضي في محاولة استكشاف معاني كتاب الله، إن استخدام آيات القرآن لتأييد الفرق والمذاهب والخلافات المذهبية واستنباط العلوم الكونيّة والمعارف النظرية الحديثة من بعض الآيات وكذلك حمله على مذهب اقتصادي معين... كلّ هذه المحاولات مما ينبغي أن ينزه القرآن عنها فلندع للقرآن عظمته وجلاله ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته "يقول الشَّيخ القطّان".

إن المقدمة التي تعمَّد الأستاذ القطان أن يجعلها بين يدي القارئ كانت نتيجة، دون شك، لحضور دائم للشيخ سواء في المؤتمرات التي عالجت الموضوع أو في المؤلفات التي أخذت تتناول مثل هذه المعلومات..

وقد كان آخر لقاء لي بالفقيد العزيز في القاهرة عندما حضرنا الاحتفال بالعيد الخمسيني لميلاد مجمعنا الموقّر حيث ظللت معه على صلة مستمرة، وكان آخر يوم ودّعته فيه هو الذي تناولت معه فيه طعام الغداء على مائدة واحدة في فندقٍ ضخمٍ قريب من منطقة الأهرام...

وقد شاءت الأقدار أن تجمع به "علاوة على مجمع اللغة العربية بالقاهرة" في مجمع اللغة العربية الأردني منذ مارس ١٩٨٠ حيث أصبحنا منتسبين لأسرةٍ واحدة على نحو ما تعززت هذه الزمالة عندما سعدت بالانتماء إلى مؤسسة آل البيت: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية

رحم الله الزميل العزيز رحمة واسعة، .. لقد كان يملأ المجالس بعلمه ويغمرها بفضله وكانت خطواته مسخّرة لخدمة الناس وخدمة الصالح العام.

كانت خلاله، رحمه الله، نسيجْة وحدها، ولذلك فإنه إذا كان لي ما أرجوه بهذه المناسبة فهو أن يهتم أبناؤه وزملاؤه بما خلَّفه من مذكرات ومؤلفات.. لا أقصد هنا فقط نتاجه الفقهي واللغوي والأدبي ولكن أقصد كذلك لما حرَّره، أو على الأصح بعض ما حرره مما يتصل بحياته الدبلوماسية فما كان لي أن أبحث في وزارة الخارجية الأردنية في تقاريره، ولا في تحليلاته للأحداث من منظوره هو... ولكني مؤمن بأن التفسير إذا كان يتوفر على رصيد أدبي وعلمي وفقهي في حجم ما كان يتوفر عليه الشيخ القطان فإن تقاريره وتحليلاته ستكتسي حلة أخرى قشيبة وستكون مثلاً في الرأي الراجح والإدراك المتّزن كما أنها ستكون من جهة ثالثة عامل بناء في طريق العلاقات، وليست عامل هدم أو تثبيط، وستكون، كما أعتقد، لَبِنةً في مد الجسور بين الناس وليس إلى نسفها...

لقد كان مثلاً في دماثة الخلق وفي حصافة الرأي... وإنّه فعلاً جدير بتكريم المملكة الأردنية له، فقد كان ابنها البار الذي أعطى وما بخل والذي ظل إلى آخر لحظة من حياته وفيّاً لِرجالها وقادتها ومبادئها... وإنّ دولةً تحتفي بعلمائها على هذا النحو، وتجيب عن ذلك الولاء بهذا الوفاء، وتستقبل تلكَ اللوذعية بهذه الأرْيَحية لجديرة بأن تظلّ دولةً شامخةً في سماء الخلق الرفيع وجديرة أن تعد في صدر الأمم الواصلة التي تعرف كيف تحافظ على استمراريتها بإنصاف الذّاهبين

والإغداق على العاملين وتمهيد الطريق للنّاشئين، إن الدولة بذلك تبرهن على أصالة محتد، وعلى صدق في الرسالة وثقة في المستقبل.

إن مثل هذه الالتفاتات مع الرَّاحلين هي التي تجعل منهم قوماً خالدين وهي التي تفتح الآفاق للحاضرين، ليمضوا في خطواتهم آمنين مطمئنين...